بقية حديث فى فرنسا . . .

[إلى الأستاذ توفيق الحكيم]

الأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

قد يذكر القراء أنى كتبت غداة انهيار فرنسا وسقوط باريس فى قبضة الألمان سنة ١٩٤٠ فى عددى ١٢ ـ ٨ ـ ١٩٤٠ و٢ ـ ٩ ـ ١٩٤٠ من هذه المجلة مقالين أندد فيهما بذلك الموقف الشاذ الذى وقفه بعض كتاب مصر والشرق العربى يبكون فرنسا بدمع غزير وعاطفة حارة ناسين أن فرنسا أشد أمم الاستعمار تعصباً على العرب والمسلمين ونكاية بمن وقع منهم فى يدها وتحت سلطانها ، وأنها كانت أعظم عائق فى طريق المفاوضين المصريين فى مؤتمر « مونترو » لإلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر ، وأنها كانت آخر دولة تنازلت عن دفع فوائد الدين المصرى بالذهب فى الأزمة التى وقعت بهذا الخصوص ، وأنها كانت أشد الأمم احتياطاً وتشدداً فى ضمان الحرية للمعاهد الأجنبية فى مصر .

وقد يذكرون أيضاً أن هذين المقالين كانا سبباً فى أن يمنع ممثل فرنسا فى سوريا ولبنان فى ذلك الوقت دخول « الرسالة » إلى هذين القطرين الشقيقين برغم أن الرسالة أفسحت صدرها لمن ردوا على رأيى منتصرين لفرنسا ومدافعين عن ميراثها الثقافى وروحها كما تراءى لهم . وكان منهم الدكتور زكى مبارك .

وقد بعثت إلى الرسالة بمقالين آخرين لم ينشرا حينذاك تمهيداً لعقد هدنة بين ممثل فرنسا فى سوريا ولبنان وبين الرسالة .

وقد ضاع المقالان ولم يبق لدى منهما إلا مسودات سأحاول الآن جمع ما تفرق من المعانى فيهما لأن الظروف قد صدقت رأيى فى فرنسا ، وجلبت عليها عداوة كثير من أقلام عربية وغير عربية من جراء تخبط سياستها ورجالها ، ومن جراء تلك الروح الوحشية البربرية الرجعية الحمقاء التى تزاول بها سياستها مع شعوب العالم العربى ، ومن جراء ذلك التخلف الذهنى الذى يبلغ درجة الانحطاط عن مستوى الروح العالمى الإنسانى الذى يغمر قلوب بعض الأوصياء على الحضارة ، على الأقل فى مظاهر الخداع والإرضاء ومحاولة الوصول إلى الأهداف من طرق ملتوية ولكنها سلمية .

وما أظن أحداً من أذناب فرنسا فى مصر يستطيع أن يرفع رأسه ويحرك قلمه الآن للدفاع عن فرنسا إلا بحذر وتمويه ولذعات خفية وظهور بمظهر الغيرة على موقف مصر بموازنة موقف انجلترا منها بموقف فرنسا فى سوريا ولبنان وشمال أفريقية ، كما يفعل الأستاذ توفيق الحكيم فى « الأهرام » بين آونة وأخرى مع أنه ظل ساكتاً لا يعلن سخطاً ولا نكيراً على سلوك فرنسا الأخير فى سوريا ، ومع أنه ربما يكون لاستنكار أمثاله من ربيبى فرنسا الأوفياء شىء ولو قليلا من الاعتبار . حتى إذا ما تحركت انجلترا بإيقاف تلك « الذبحة الكبرى » تحرك قلمه يغمز ويلمز فى مظهر الغيرة على الوطنية المصرية . وهو موقف مكشوف ظاهره الوطنية وباطنه تبرير موقف فرنسا بمقارنة صنيعها بصنيع انجلترا فى مصر . وما كان أولاه أن يتحرك قبل الآن ليثير الثبار والشرر والنار فى وجه الفرنسيين المعتدين الغاشمين على أبناء قومه فى الشرق والغرب ، إن كان يدين بالقومية العربية التى يعيش من الكتابة بلغتها ... أو ليغمز الانجليز كما يشاء .

تحنـــو علي وترعانى وتبسط لى

فى غمرة الرأى رأى الناصح الهادى

وهذه هى صفة الزوجية التى تشترك فيها حياتان بالرأى والعطف ، وتكاد تغنى غناء الماء والزاد ، بل تكاد تجعل يوم الميلاد يوماً مشتركا لا يستقل فيه الزوج بذكرى ولادة له لا ترتبط بذكرى الزواج

هذه الحياة أعجوبة الأعاجيب ، وهى أعجب ما تكون فى مألوفاتها الشائعة كل صباح ومساء ، ومن تلك العجائب أنها لم تجود بخير لا شر فيه ولا تصيب بشر يخلو كل الخلو من الخير . وليس عزاء الإنسان على شطر نفسه وصنو حياته باليسير ، ولكنه على كل حال من العزاء النبيل للشاعرين الفاضلين أن مصابهما قد أغنى الأدب العربى بهذه الذخيرة النفيسة ، وسجل للمجتمع المصرى هذه الظاهرة الكريمة التى تقترن أبداً بالتهذيب والارتقاء

عباس محمود العقاد

وأنا بعد أن لست أخيراً حماسته لفرنسا حماسة نمى فيها أدب الحديث والمناقشة مع بعض الجالسين فى إحدى جلسات ندوة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ينبغى ألا أصامته ، بل ينبغى أن أكشفه وأكشف أمثاله للعالم العربى ليعرف فى ساعة العسرة والأزمات هؤلاء الذين يعيشون معه بأجسامهم فقط . .

وإنى أدعو الأستاذ سيد قطب أن يكشف عن هذا الأثيم الذى جادله فى أمر الشرق العربى وفظائع فرنسا فيه ، وقال تلك المقالة المنكرة « إذا لم يكن بد للانسانية من أن تفقد فرنسا أو أن تفقد هذا الشرق العربى فليذهب الشرق العربى إلى الجحيم ! » فما ينبغى لنا بعد اليوم أن نبقى على صداقات تنكر الصداقة الأولى التى يعرفها الحيوان قبل الإنسان وهى صداقة الوطن والجنس ، فعليه أن يكشف هذا الدخيل الجاهل وهو معافى من قيود الأخلاق فى مثل هذه الحال .

المقال الأول

مما لم ينشر فى سنة ١٩٤٠

إلى ممثل فرنسا فى سوريا ولبنانه

كتب الدكتور زكى مبارك إلى جنابكم كتاباً مفتوحاً نشر فى العدد[1] من « الرسالة » حاول فيه أن يبرئ الرسالة من جرائر المقالتين اللتين أنحيتُ فيهما باللائمة الشديدة والسخط البالغ على أساليب فرنسا الاستعمارية التى لا تفرق فيها بين الشخصية السياسية للمحكومين لها وبين شخصيتهم الإنسانية والأدبية التى تتطلب غذاء لأرواحهم وعقولهم فى هذا العصر الذى تسمونه عصر العلم والنور وارتفاع قيمة المعانى الإنسانية ، وقد أدى عدم التفريق هذا إلى تخلف العرب والبربر المحكومين بكم عن قافلة الحياة الإنسانية بمائة سنة على أقل تقدير . وفى هذا جناية عظيمة على الحضارة بحرمانها من جهود أمة من أذكى أمم الأرض وأعرقها مدنية ، وجناية على المبادئ السامية التى زعمتم أنكم أول من أعلنها فى ثورتكم الكبرى .

وقد طلبتُ من الباكين على فرنسا فى محنتها الحاضرة أن يذكروا محنة بنى قومهم بكم قبل أن يذكروا محنتكم بالألمان ؛ وأن يكفُّوا عن افتتانهم بحضارتكم فتنة العمى عن عيوبكم وجناياتكم على الإنسان بحرمانه من خبز الروح وخبز البدن ... مما لم ير العالم له مثيلاً إلا فى عصور البربرية والهمجية .

وطلبت من هؤلاء الباكين أيضاً أنهم إذا ذكروا « باستور » وفضله على الإنسان كما ذكره الدكتور زكى فليذكروا أنكم الآن تحكمون البشر أقل من حكم البقر والنعم التى كانت فى حظائر « باستور » ليجرى عليها تجاربه وأبحاثه ؛ فقد كان يسمنها ويربيها ويداويها ويبقى على حياتها ويفكر لإنقاذها من الأمراض ويعدها للغاية التى خلقت لها . وإذا أحيا « باستور » ملايين الأجسام فقد أمات قومه ملايين الأرواح والأجسام موتاً مادياً وأدبياً أخف منه الموت بالطاعون والأوجاع الثقيلة التى تقضى على الإنسان مرة واحدة ولا تهدر دمه وترخص روحه .

وإذا ذكروا « شمبوليون » وفضله على مدنية أجداد المصريين كما ذكره الدكتور زكى فليذكروا أنه جاء مصر غازياً فى حملة نابليون الذى نكل بالمصريين تنكيلاً فظيعاً ، فإذا احتفل الأول بأحجار قدماء المصريين فقد أباح الثانى لجنوده أن يتخذوا من الأزهر — صاحب الفضل الأول على الدكتور زكى مبارك ! — اصطبلاً لخيلهم ، وأن يحرقوا أحفاد صانعى الأحجار التى فتن بها « شمبوليون » بالنفط ويضربوا نطاقاً من المواد الملتهبة حول القاهرة وحواضر الأقاليم . وكتب نابليون إلى أحد قواده يأمره بقطع خمسة رءوس كل يوم من أعيان البلاد كما يقطع هو كل يوم عشرة رءوس منهم !

وإذا ذكروا « السوربون » وفضله على الأدب والعلم فليذكروا الأزهر الذى اتخذته جنودكم اصطبلاً للخيول ولم يرعوا للعلم والدين حرمة .

(١) العدد ٣٧٥ تاريخ ٩ سبتمبر ١٩٤٠

وإذا ذكروا انتقاعهم بعلومكم وفنونكم ، فليذكروا أنكم كنتم أشد الأمم إصراراً على الاستمرار فى إهدار الكرامة المصرية وكنتم الشوكة الوحيدة فى حلوق المفاوضين المصريين فى مؤتمر « مونترو » لإلغاء الامتيازات الأجنبية ، التى كانت تجعل من السنغالى التابع لكم شخصاً له امتياز على المصريين فى ديارهم . وأنكم كنتم آخر دولة وقعت على محضر إلغاء صندوق الدين : رمز الذل الاقتصادى الذى أصاب مصر ، فلم توقعوا إلا بعد هزيمتكم ونكبتكم ، وأنكم كنتم الوحيدين الذين أصروا على دفع فوائد ديونهم فى مصر ذهباً لا ورقاً ، وأنكم وحدكم الذى عنيتم بفرض ضمانات شديدة لاحتلالنا بثقافتكم .

وإذا ذكروا التماثيل والأنصاب التى تجعل مدنكم ، فليذكروا أن أشرف نُصُب فيها وهو ضريح الجندى المجهول فى باريس يثير فى نفوس العارفين ذكرى أكبر مخزاة ومظلمة ونكران للجميل ! فقد ذكر سكرتير مسيو « كلمنصو » فى مذكراته أن حكومتكم لما فرغت من إقامة بناء ذلك النصب التى تحته قبر الجندى المجهول فى باريس أرادوا أن يضعوا فيه جثة جندى فرنسى ، فذهبوا إلى ميدان موقعة « المارن » الشهيرة ، وصاروا ينبشون لإخراج جثة . وشاء الله أن يسجل على فرنسا لعنة أبدية حيث أرادوا لها فخراً . فكانوا كلما نبشوا عن جثة وجدوها جثة قتيل من جنود شمال إفريقية فيردمون عليها ، وهكذا لم يهتدوا لجثة جندى فرنسى « أبيض » إلا بعد عثورهم على ثلاثة عشر جثة للمغاربة ! ومع هذا لم ينطفوا قوم هؤلاء القتلى الذين ذهب ملايين منهم ضحايا فى سبيل فرنسا أى إنصاف ، ولم يمكنوهم من أقل الحقوق الإنسانية وهى حق الحياة والعلم ، وأبو أن يضعوا جثة أحدهم مكان جثة فرنسى قح ...

وإذا ذكر الباكون أنهم عاشوا بباريس فى رحاب الشراب والحب والغزل والأنس ، فليذكروا أن بطلاً كريماً هو المجاهد محمد عبد الكريم الخطابى بطل ثورة الريف فى مراكش الذى تفخر به قوميتهم العربية أعظم من فخرها بأى قلم تافه لأحدهم ... قد مضى عليه خمسة عشر عاماً « الآن مضى عليه عشرون عاماً » وهو ملقى فى أصفاده على صخور جزيرة مدغشقر ، وأنه لم يسلم نفسه لفرنسا إلا بعد عهد قطعته على نفسها ثم نكثت به وخانت شرف اسمها ، وأن هذه الأمة الفرنسية التى لا يزال قلبها يتنزى ألماً وحسرة على نهاية بطلها نابليون لا تشعر أى شعور إنسانى نحو أمثاله من الذين نهضوا يذودون عن حرية قومهم ومجدهم .

فيا جناب ممثل فرنسا ! أظن أنك رجل تغار على قوميتك وتدافع عنها ! فدعنا نفعل ذلك دائماً

وأظنك ترى معى أن كل من يضع على فرنسا حنان قلبه ويغسلها بدموع عينيه من المصريين إنما هو أحد رجلين : رجل جاهل بجرائركم على أمته وكرامة قومه ، قد استسلم للفتنة بما عندكم ، وهذا لا يليق به أن يتصدى لقيادة الشباب بقلمه مهما كان له من الحسنات فى مجال « الترف العقلى » ولا يجوز لكم أن تعتبروه معبراً عن شعور هذه الأمة المصرية حين يرسل لمصرع أمتكم دموعاً تشهد عليه أنه غير سليم الموقف ولا صحيح الطبع ، وإنما هو ذو مزاج مؤوف ورأى منكوس .

وإما رجل يعرف هذه الجرائر ولكنه يطويها عن الناس فى نفسه ولا يذكرهم بها ليبين لشباب قومه الفتون جوهر نفوسكم وحقيقة حضارتكم ، لأنه صريع الخيانة أو مأجور القلم . وهذا لا شك رجل تافه الصداقة تافه العداوة ؛ فليس فيه نفع لكم لأنه لم ينفع قومه . وهو جدير أن ينقلب عليكم حين تفوته النفعة ، ولأنه لم يعشق روحكم التى يزعمها روح أحرار ، فلو عشقها حقاً لكان أول من حاكمكم إليها حين رأكم تحيدون عنها وخصوصاً مع بنى قومه

وإذا كان فيما مضى كتاب خادعون أو مخدوعون فتنوا بمظاهر حياتكم فتنة العمى عن حياة قومهم المعذبين بكم ، وصالحوكم ولم يذيقوكم مرارة العداوة والثأر من سمعتكم ، لإخوانهم ، فإن الزمن الآتى لن يسمح لأمثالهم أن يسيطروا على عقول الشباب العربى ، بعد أن نطقت حوادث الزمان أنكم قوم لا تصلحون لوصاية على أحد إذ أنكم أنتم محتاجون فى الواقع إلى أوصياء يهدونكم سبيل الرشد .

عبد المنعم محمد خلاف